المشكاة
مجلة علمية محكّمة
العدد الأول ـ 2003

الدستور العقائدي في الوحي الإلهي للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

أ. موريس بورمانس *

يُعنَى الدستور الذي أصدره المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بتأويلية الكتاب المقدس في فصله الثالث فكان فصله الأول قد بين ماهية الوحي الإلهي في حد ذاته وفصله الثاني قد أوضح طرق تناقل هذا الوحي بواسطة السنة المسيحية المقدسة وأسفار الكتاب المقدس كل ذلك قبل أن يفسر نفس الدستور النظرة المسيحية تجاه العهد القديم والعهد الجديد في فصليه الرابع والخامس ثم أهمية الكتاب المقدس في حياة الكنيسة في فصله السادس.

فلهذا سينقسم بحثنا هذا إلى قسمين فالقسم الأول موضوعه ماهية الوحي الإلهي عند المسيحيين وما هي طرق تناقله عبر القرون وفي مختلف المجتمعات أمّا القسم الثاني فموضوعه التعريف بالإلهام والحقيقة في مجال تأويلية الكتاب المقدس أولا ثم التحديد بالمعاني الممكن إستخراجها منه.

* الأستاذ الدكتور - موريس بورمانس - أستاذ وباحث بالمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية - روما - إيطاليا.

1 - الوحي الإلهي والسنة المسيحية والكتاب المقدس

1 - 1 الوحي الإلهي عند المسيحيين هو المسيح نفسه

ليس الوحي الإلهي عند المسيحيين بنص من النصوص قد أملاه الله إلى بعض أنبيائه فيطالع البشر فيه أسماء تسميته وأوامر مشيئته بل الوحي عندهم هو تاريخ ميثاق يتجدد وتأريخ خلاص يتنفذ "فتدبير الوحي هذا يقوم بالأعمال والأقوال التي ترتبط فيما بينهما ارتباطا وثيقا، بنوع أن الأعمال التي حققها الله في تاريخ الخلاص تبرز وتدعم العقيدة والحقائق التي تعبر عنها الأقوال، بينما الأقوال تعلن الأعمال وتوضح السر الذي تحويه" [1] فتصبح كتابا مقدسا وفي النهاية " الحقيقة الخالصة التي يطلعنا عليها الوحي سواء عن المكاشفة بالله أم عن خلاص الإنسان، فإنها تسطع لنا في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله وملؤه في آن واحد" [2].

إذن فالوحي الإلهي هو المسيح نفسه وليس بالأناجيل الأربعة التي تروي لنا بعض الجوانب من حياته وتبلغ إلينا بعض تعاليمه فهكذا جاء الوحي يتجلى شيئا فشيئا متطورا حتى ظهر في كماله في شخص المسيح من خلال مراحل متتابعة من آدم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى يسوع المسيح " فالله بعد أن تكلم تكرارا وبطرق مختلفة بالأنبياء وكلمنا في هذه الأيام الأخيرة بالابن (عبرائين 1/1 - 3) فلقد أرسل ابنه، الكلمة الأزلي الذي ينير كل إنسان ليقيم بين البشر ويخبرهم عن خفيّات الله (يوحنا 1081/1) ويسوع المسيح، الكلمة المتجسد والإنسان المرسل إلى الناس، يتكلم إذا بكلام الله (يوحنا 34/3) ويتمم العمل الخلاصي الذي أعطاه إياه الآب ليعلمه (راجع يوحنا 36/5، 4/17). وعليه فهو

(1) المرجع الأول والاخر هو النص الرسمي للدستور العقائدي في الوحي الإلهي بحسب فقراته الفقرة 2

(2) الفقرة 2

الذي - إن رآه أحد فقد رأى الآب (راجع يوحنا 14/ 9) - بحضوره الذاتي الكامل وبظهوره، بأعماله وأقواله، بأياته ومعجزاته، وخاصة بموته وقيامته المجيدة من بين الأموات، وأخيرا بإرساله الروح القدس روح الحق، يتمم الوحي ويكمله ويثبته، إذ يشهد شهادة الإله أن الله معنا لينشلنا من ظلمات الخطيئة والموت ويقيمنا للحياة الأبدية". (3)

هكذا يصل الوحي الإلهي عند المسيحيين إلى ذروته في يسوع المسيح نفسه مع من نقلوا إليهم أقواله وأعماله فسيكون هذا الوحي كاملا حقا عند تجلي المسيح في مجده عند انقضاء التاريخ فعلى المسيحيين أن يطيعوا في الإيمان (رومية 26/16) أي أن يخضعوا لله الموحي عقلهم وإرادتهم وذلك بفضل نعمة الله السابقة والمساعدة وبفضل مواهب الروح القدس التي تحرك القلب وترده إلى الله فالمسيحيون يعترفون في نفس الوقت بأن العقل البشري يستطيع بنوره الطبيعي أن يعرف الله، مبدأ كل شيء وغايته، معرفة أكيدة، وذلك عن طريق المخلوقات (رومية 30/1) وبأن الله أراد أن يكشف عن ذاته بالوحي الإلهي وأن يبين أحكام مشيئته الأزلية في ما يختص بخلاص البشر " أي في ما يعود إلى إشراكهم بالخيرات الإلهية التي تفوق تماما إدراك العقل البشري" (4).

1 - 2 - تناقل الوحي الإلهي :

يرى المسيحيون أن البشرى بالخلاص في يسوع المسيح وهي مضمون الوحي الإلهي قد تناقلت بواسطة طريقتين متكاملتين وأولاهما هي السنة المسيحية المتداولة (التقليد المقدس في المصطلح المسيحي الشرقي) (La Sainte Tradition) وثانيتهما الكتاب المقدس (La Sainte Ecriture) وكلاهما تحت إشراف المسؤولين وهم جماعة الأساقفة خلفاء

(3) الفقرة 4

(4) الفقرة 6

الرسل الإثني عشر تلاميذ يسوع المسيح فيلخص كل ذلك الدستور العقائدي في فقرته الثامنة : " لقد دبر الله أن يدوم الوحي الإلهي بكليته مدى الدهر ويسلم للأجيال كلها ولهذا فإن السيد المسيح أمر رسله وأعطاهم المواهب الإلهية ليكرزوا بها على الجميع كينبوع لكل حقيقة خلاصية ونظام أخلاقي. ولقد تحقق ذلك بكل أمانة إما على يد الرسل الذين لم تكن كرازتهم الشفوية ومثلهم ومؤسساتهم سوى نتيجة لأقوال المسيح أو لمعاشرته أو لأعماله أو لما تعلموه بوحي من الروح القدس، وإما على يد أولائك الرسل وصحبهم الذين بإلهام الروح القدس عينه دونوا بشارة الخلاص. بيد أن الرسل تركوا خلفاء لهم الأساقفة وسلموهم مكانتهم التعليمية لتظل البشارة دائما تامة وحية في الكنيسة.

وبناء عليه أصبح التقليد المقدس والكتاب المقدس في عهديه بمثابة مرآة تتأمل فيها الكنيسة، في غربتها على الأرض، بالله الذي يمنعها كل شيء إلى أن تصل إلى معاينته كما هو وجها لوجه" (راجع أبو حنا 2/3) [5]

فهكذا للسنة المسيحية المتداولة الأسبقية والأفضلية في تناقل الوحي الإلهي ألا وهي الكنيسة نفسها التي ترشد جماعة المؤمنين وتبين لهم لائحة الأسفار التي تكون مجموع الكتاب المقدس (Le Canon des Ecritures) فختاما بحسب الدستور المذكور أعلاه :

"ومن ثم فإن التقليد المقدس والكتاب المقدس يرتبطان ببعضهما ويشتركان فيما بينهما بصورة وثيقة. وإذ ينبع كلاهما من المصدر الإلهي عينه، فإنهما يكونان نوعا ما وحدة ويُقصدان إلى الغاية نفسها : فالكتاب المقدس هو حقا كلام الله بحيث إنه قد سطر كتابة بإلهام الروح القدس. أما التقليد المقدس فإنه ينقل كلام الله كاملا. وقد ائتمن عليه الرسل من

(5) الفقرة 7

لدن المسيح والروح القدس - إلى خلفائهم لكي يبشروا به، وقد أنارهم روح الحق، ويحفظوه بأمانة ويعرضوه وينشروه، فينتج عن ذلك أن الكنيسة لا تنهل اليقين عن محتويات الوحي كلها من الكتاب المقدس وحده" (6)

فلهذا مهمة تفسير كلام الله، المكتوب أو المنقول، تفسيرا صحيحا، " فقد أوكلت إلى سلطة الكنيسة التعليمية الحية وحدها، تلك التي تمارس باسم يسوع المسيح، على أن هذه السلطة ليست فوق كلام الله ولكنها تخدمه" (7)

2 - الإلهام الإلهي للكتاب المقدس وتفسيره وتأويله

1 - 1 - إلهام الكتاب المقدس وحقيقته

فالدستور الجمعي يفسر بدقة ما هو الإلهام الكتابي وما هي علاقاته مع الوحي الإلهي فيقول : " إن الحقائق التي أوحى بها الله وتحملها أسفار الكتاب المقدس إلى الناس، فقد دونت بإلهام من الروح القدس. والكنيسة بالاعتماد على إيمان الرسل، تعتبر كل الأسفار في كلا العهدين القديم والجديد قانونية ومقدسة بكل أجزائها، ذلك أنها كتبت بإلهام الروح القدس ولذا فهي من وضع الله وعلى هذا الاعتبار تسلمتها الكنيسة بالتناقل ولكي يضع الله هذه الكتب المقدسة، اختار أناسًا واستعان بهم، عاملا هو نفسه فيهم وبواسطتهم ليكتبوا كمؤلفين حقيقين...

استخدموا قواهم وإمكاناتهم، كل ما أراده هو لا شيء سواه" (8)

---

(6) الفقرة 9

(7) الفقرة 10

(8) الفقرة 11

فالإلهام هو الإرشاد الإلهي لعبقرية المؤلف الروحية والأدبية أثناء تأليف أسفار الكتاب المقدس كي يتطابق المكتوب من الوحي الإلهي مع الشفوي المتناقل فهكذا تأتي حقيقة الكتابيّ المقدس في إطار ماهية الوحي الإلهي ووظيفة الإلهام الكتابي ونوعية الحركة التأليفية فهي إذن حقيقة خلاصية محضة إذ لا يقصد الكتاب المقدس أن يعلم البشر حقائق العلوم الطبيعية أو الرياضية فها هو نص الدستور في هذا الشأن :

" أسفار الكتاب المقدس تقدم تعليما ثابتا وأمينا ومعصوما عن الخطإ حول الحقيقة التي أراد الله أن تدون من أجل خلاصنا" (9)

2 - 2 - كيف يجب تفسير الكتاب المقدس ؟

يقول الدستور بكل وضوح إنه لا بد من البحث عن كل ما أراد المؤلف الملهم أن يعبر عنه وما أراد الله نفسه أن يظهره ويبلغه من الوحي على يد المؤلف نفسه : " بما أن الله قد تكلم في الكتاب المقدس بلسان البشر وعلى طرائق البشر فإذا شاء مفسر الكتاب المقدس أن يدرك إدراكا كاملا حقيقة ما قصد الله بما أبلغنا إياه، توجب عليه أن يتفحص كلام كاتب الوحي متسائلا : ما هي حقيقة ما هدف إليه في قوله ؟ وماذا حسن لدى الله نفسه أن يكشف على لسانه" ؟ (10)

فينجر من هذا المبدإ وجوب استنجاد المفسر بجميع العلوم التاريخية والإنسانية وحتى الألسنية كي يتعمق في مفاهمة مختلف المعاني، الحرفية منها والرمزية والروحية والروحانية فيقول الدستور في هذا الشأن : " لكي يستخلص المرء نية كاتب الوحي مما قاله توجب عليه أن يولي " الأنماط الأدبية" اهتماما خاصا لأن الكتاب الذي يبسط حقيقة ما قد يعبر عنها بطرق متنوعة وفي نصوص تعتمد أساليب مختلفة فتأتي تاريخية أو

(9) الفقرة 11

(10) الفقرة 12

نبوية أو شعرية أو بأنماط أخرى من أنماط التعبير فيجب إذن على المفسر أن يبحث عن المعنى الذي قصده كاتب الوحي، ويرى كيف عبر عنه في أجواء خاصة وفي بيئة لأزمة وفي أوضاع ثقافية راهنة، معتمدا أنماطا أدبية شائعة في زمانه ويضيف نفس الدستور مدققا تعليماته : " وجب عليه أيضا أن يتنبه تنبها دقيقا إلى ما شاع في بيئة الكاتب من طرق موروثة، تستعمل للتعبير عن عاطفة أو لرواية قول أو لسرد حادثة، وإلى ما شاع في مختلف البلدان، في العهد عينه، بين المجتمعات الإنسانية، من طرق للتعامل". [11]

فأبواب البحث الكتابي والنقد العلمي مفتوحة أمام اجتهاد الجميع كي يكشفوا عن الأنماط الأدبية في الكتاب المقدس والنماذج كثيرة طبقت بعضها على سبيل المثال في محاضرات زملائي الأفاضل فلا بد من التمييز في تفسير الكتاب المقدس بين النصوص التاريخية وغيرها من النصائح الأخلاقية والأبيات الشعرية والأحكام الشرعية والأمثال الشعبية والأدعية التوسلية إذ معانيها تختلف باختلاف أنماطها الأدبية وحتى الأنماط التارخية تختلف فيما بينها لأن التاريخ القصصي القديم ليس بالتاريخ العلمي المعاصر !

غير أن التفسير المسيحي الكامل (التفسير اللاهوتي) لا يكتفي بهذا النوع من البحث عن المعاني لأن أسفار العهدين للكتاب المقدس تكوّن وحدة كتابية روحية لا تتجزأ " إذ كانت أفكار العهد الجديد دفينة في تضاعيف العهد القديم، بينما اكتسبت افكار العهد القديم كمالها النهائي إلا في العهد الجديد" [12] لأن المقصد الأول والآخر للكتاب المقدس هو يسوع المسيح فلهذا يقول الدستور : " بما أن الكتاب المقدس لا يقرأ ولا يفسر إلا في نور ذلك الروح الذي نوره تمت كتابته، ولأجل أن يستخلص المرء من

---

(11) الفقرة 12

(12) الفقرة 16

النصوص المقدسة معناها الدقيق، لزم التنبه تنبها فائقا إلى مضمون الكتاب كله ووحدته، من غير أن يغفل التقليد الحي الجاري في الكنيسة كلها وقياس الشبه في التعبير عن الايمان، ويعود إلى المفسرين، على ضوء المبادىء المذكورة أعلاه، أن يسعوا سعيا حثيثا إلى أن يدركوا معاني الكتاب المقدس إدراكا أعمق ويعرضوها عرضا أوفى، ويعملوا هكذا بدراساتهم التمهيدية على أن يأتي حكم الكنيسة بشأنها ناضجا لأن كل ما يتعلق بأصول تفسير الكتاب خاضع في النهاية لحكم الكنيسة وهي بذلك تقوم بما عهد إليها الله من مهمة المحافظة على كلمة الله وتفسيرها ". (13)

فكل ما جاء في الدستور من التعريف بحقيقة الوحي الإلهي والإلهام الكتابي واستخدام الأنماط الأدبية يطبق تطبيقا خاصا في مجال تفسير الأناجيل الأربعة فيقول نفس الدستور في شأنها إنها " قد نقلت بصدق وأمانة ما قام به يسوع ابن الله من أعمال وما نشر من تعاليم... فالرسل، بعد صعود الرب نقلوا إلى مستمعيهم أقوال المسيح وأعماله، بذلك الفهم المتكامل الذي توصلوا إليه عن طريق أحداث المسيح المجيدة التي دربتهم ونور روح الحق الذي علمهم. أما المؤلفون القديسون فقد كتبوا الأناجيل الأربعة واختاروا بعض ما كان ينقل بغزارة، شفويا أو كتابة، وأوجزوا البعض الآخر أو فسروه مع مراعاة ظروف الكنيسة واحتفظوا أخيرا بأسلوب الكرازة بحيث أنهم أعطونا دوما عن يسوع ما هو حق وصادق. ولقد كتبوا بتلك النية سواء تدفقت الأمور من ذاكرتهم وذكرياتهم الشخصية أوصدرت عن شهادة أولائك الذين " عاينوا بأنفسهم منذ البدء وكانوا خداما للكلمة، فنعرف "حقيقة" الكلام الذي تعلمنا. (راجع لوقا 402/1) (14)

(13) الفقرة 12

(14) الفقرة 19

خاتمة :

تلك هي التوجهات العقائدية التي جاء بها المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في شأن تفسير الكتاب المقدس ومفاهمة الوحي الإلهي وقبول عطية الكلمة في حياة الكنيسة والمسيحيين فيظهر هكذا بكل وضوح البعد الإلهي والبعد البشري للكتاب المقدس فيرتبط سر هذا الكتاب بسر الكلمة الإلهي المتجسد وتجليه في شخص يسوع المسيح وبسر الكنيسة نفسها التي هي هيكل حي يقدس فيه من أراد أن يتبع خطى المسيح ويقتدي به حق الاقتداء فقد عبر عن ذلك الدستور في فقرة ختامية قائلا : " ففي الكتاب المقدس إذن يظهر تنازل الحكمة الأزلية، هذا التنازل العجيب الذي تبقى فيه حقيقة الله وقداسته على ما هما عليه وبه نتعلم عطف الله الفائق الوصف الذي جعله يرفق بطبيعتنا ويتجاوب معها فيكيف كلامه حسب متطلباتها حتى أن كلامه، وقد نطقت به شفاه بشرية، صار شبيها بكلام البشر كما أن كلمة الآب الأزلي قد اتخذ يوما بالجسد وهن الطبيعة البشرية وصار شبيها بالبشر" (15)

فهكذا في الختام يؤدي ازدياد المسيحيين تفسيرا ومفاهمة وتقديسا للكتاب المقدس إلى الاقتداء بالمسيح اقتداء أوفى و أخلص حتى كما يقول القديس بولس الرسول في رسالة له " تتواصل كلمة الله جريها وتتمجد" (16)

(15) الفقرة 13

(16) الفقرة 26